

الدرس الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد : فنواصل قراءتنا في هذه الرسالة القيمة «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين - تحت باب معرفة الله عز وجل والإيمان به :

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ؛ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) رواه مسلم .

من الإيمان بالله عز وجل ومن معرفته سبحانه الإيمان بأسمائه وصفاته ومعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن العبد كلما عظم حظه من معرفة أسماء الله جل وعلا وصفاته الواردة في القرآن والواردة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم عظم حظه ونصيبه من الإيمان ، لأن من الإيمان بالله عز وجل الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بها يسبقه معرفتها ؛ ولهذا قال : «معرفة الله عز وجل والإيمان به» ، فلا بد من معرفتها من خلال كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثم إتباع المعرفة بالإيمان ؛ وهو أن يقرَّ قلب المسلم ويصدق بهذه الأسماء وهذه الصفات وأنها أسماء لله عز وجل وصفات لله عز وجل متضمنة لمعاني الجلال والكمال والعظمة والكبرياء ، بحيث يمتلأ القلب بمعرفته بها إيماناً و يقيناً وتعظيماً وإجلالاً لله عز وجل وذلاً وخضوعاً له وانكساراً بين يديه سبحانه وتعالى ؛ وهذه كلها ثمار وآثار لمعرفة الله عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . ولهذا أخذ المصنف يسوق في هذه الترجمة جملةً من الأحاديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام التي فيها التعريف بالمعبود سبحانه وتعالى وذلك بذكر أسمائه جل وعلا وصفاته .

قال : ((وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ)) هؤلاء الخمس الكلمات التي قام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم معلماً ومنبهاً ومبيناً لأصحابه

ولأتمته عليه الصلاة والسلام كلها كلمات فيها تعريفٌ بالرب العظيم ، تعريفٌ بالله ، وهذا التعريف بالله من المحاور التي تركز عليها دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم . قال العلماء رحمهم الله : إن دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم تركز على ثلاث محاور:

١. المحور الأول: التعريف بالرب المعبود والخالق الجليل سبحانه وتعالى .
٢. والمحور الثاني: التعريف بعبادته والطريق الذي ارتضاه لعباده ليتقربوا من خلاله إليه تبارك وتعالى .
٣. والمحور الثالث: بيان ما أعده الله تبارك وتعالى لمن سلك هذا الطريق من ثواب، ولمن حاد عنه وانحرف عنه من عقاب .

فهذا الذي قام فيه النبي عليه الصلاة والسلام هذا من المحور الأول وهو أساسٌ لا بد منه ؛ تعريف الناس بربهم ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة جدًا فيها تعريف الناس بالله ؛ بذكر صفاته وأسمائه وعظمته وجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

قال : ((قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ)) ؛ وقوله «بخمس كلمات» دليل على دقة الصحابة في ضبط العلم وما يلقى عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم خمس كلمات فضبطها بالعدد أبو موسى الأشعري حتى تنضبط ، والأرقام تعين على ضبط العلم وحفظه .

قال: ((قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) ؛ هذه الكلمة الأولى في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وقوله «لا ينام» نفي النوم عنه بل نفي كل نقص عنه يرد في الكتاب والسنة يتضمن ولا بد إثبات كمال ضد ما نُفي ، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم في باب النفي ؛ النفي في الصفات ليس نفيًا صريحًا ، وإنما هو نفي متضمن لكمال ضد المنفي ، لأن النفي الصريح ليس مدحًا ، لا يكون النفي مدحا إلا إذا تضمن معنى ثبوتي ، ولهذا قوله «لا ينام» نفي النوم فيه إثبات كمال الحياة ، وأنه سبحانه وتعالى له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص ، بخلاف حياة المخلوق ؛ المخلوق حياته فيها نقص ، نوم والنوم ناشئ عن التعب ، يتعب وينصب فيحتاج إلى الراحة يحتاج إلى النوم ؛ فهذا نقص يدل على ضعفه وعجزه ونصبه وتعبه ، فحياته فيها نقص ، أما حياة الله عز وجل فهي حياة كاملة ، حياته تبارك وتعالى حياة لم تُسبق بعدم ((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ)) ، في الدعاء: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)) ، ولا يلحق حياته فناء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [النقص: ٨٨] ولا يعتري حياته تبارك وتعالى نقص ؛ ولهذا نفى تبارك وتعالى في كتابه النقائص التي

تتناهى مع كمال حياته كقوله هنا في الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ)) ، وكقوله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي تعب ونصب ؛ فزده تبارك وتعالى نفسه عن النقائص التي تتنافى مع كمال حياته سبحانه ، فالله جل وعز حي حياة كاملة لا نقص

فيها بوجه من الوجوه ، حياة لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء ولا يعتريها نقص ، النوم نقص ، والسنة نقص ، واللغوب نقص ، والموت نقص ، والله منزّه عن ذلك كله لكمال حياته تبارك وتعالى .

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) أي أنه منزّه عن ذلك كله ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [هود: ١٢٣] النائم غافل ، النائم لا يدري ما حوله ، والله جل وعلا منزّه عن ذلك كله ، فهو لا ينام ولا ينبغي له أن ينام .

هنا معرفة المسلم بهذا الوصف لله عز وجل وهو وصفه بكمال الحياة وتنزهه عن السنة والنوم والموت واللغوب ونحو ذلك لكمال حياته سبحانه وتعالى ؛ هذه المعرفة ما الذي تولّده في العبد من عبودية وذل لله تبارك وتعالى ؟ والعلماء رحمهم الله ذكروا أن كل اسم من أسماء الله وكل صفة من صفاته له عبودية يقتضيها ذلك الاسم ، فمن عرف ربه تبارك وتعالى هذه المعرفة أنه جل وعلا له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص ولا عجز ولا ضعف ، لا يعتريها سنة ولا نوم ولا موت ، حياة تامة كاملة ، ما الذي تولّده هذه المعرفة من عبودية ؟ لاشك أن هذه المعرفة توجد في العبد صدق الإقبال على الله جل وعلا وحسن التوكل عليه ودوام الطاعة له ، لأن العبد يعلم أن ربه سبحانه وتعالى الذي يتجه إليه بالعبادة والسؤال والطلب حي لا ينام ، حي لا يموت ، حي لا يمسه لغوب ولا تعب ، فهذا يوجد فيه توجّه صادق إليه وحده دون سواه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] .

وهذا يستفيد منه المسلم فائدة : أن الحي الذي يموت لا يعلّق القلب به ولا يتوكل عليه ، والحي الذي قد مات من باب أولى لا يلتجأ إليه ولا يتوكل عليه ، والجماد الذي ليس له حياة أصلاً من باب أولى لا يلتجأ إليه ولا يتوكل عليه ؛ فهذا يبين لنا بطلان عبادة غير الله ، قوله ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) هذا من الدلائل العظيمة على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى . يقال لمن يعبد غير الله : تعبد من ينام !! فكيف أنه ينام ألا تعبد ، هذه وحدها تكفي ، كونه ينام هذا وحده كافٍ ألا يُعبد ؛ لماذا ؟ لأن نومه دليل على نقصه ، كيف تعرض حاجتك عليه وكيف تتوكل عليه وهو فيه نقص !! فكيف يُطلب الكمال ممن هو ناقص ؟ كيف تُطلب العافية ممن لا يملكها في حق نفسه ، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ فهذا وحده كافٍ في بطلان عبادة غير الله ، الحي الذي يموت أو ينام هذا كيف يلتجأ إليه ؟! والحي الذي قد مات ودُفن ووُري في التراب كيف يتوجه إليه ؟! والحجر الذي هو جماد كيف يتوجه إليه ويلتجأ إليه ؟! فهذا من أبين البينات وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى .

ومن يدعو غير الله تبارك وتعالى حُسف عقله ؛ إذ كيف يسوّي هذه المخلوقات بالرب العظيم والخالق الجليل تبارك وتعالى الذي بيده أزمنة الأمور جل وعلا !! ولهذا جاء ملاحظة هذا المعنى في أدعية النبي عليه الصلاة والسلام ، كما جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ

وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي؛ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» التوجه يكون لمن؟ للحَي الذي لا يموت ، للحَي الذي لا ينام ، للحَي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أما الحَي الذي يموت والحَي الذي ينام والحَي الذي تأخذه السنة والنوم والحَي الذي ينصب ويتعب ويمرض ويسقم كيف يُتوجه إليه بالدعاء والعبادة والسؤال والطلب !! فهذا من أبين البراهين وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله ، وعلى وجوب إفراجه تبارك وتعالى وحده بالعبادة والذل والخضوع والانكسار . قال ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)).

الكلمة الثانية قال: ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) وجاء في بعض روايات الحديث في الصحيح ((وَيَبْدِيهِ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)) أي أن الميزان بيده ووزن الأمور بيده وبتدبيره سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، الذي بيده أزمة الأمور تبارك وتعالى. وهذا أيضا من الدلائل والبراهين على وجوب كمال الذل له والخضوع له والانكسار بين يديه تبارك وتعالى . ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) فالأمر بيده تبارك وتعالى ؛ بيده الخفض والرفع، والقبض والبسط ، والعطاء والمنع ، والعز والذل ، كل شيء بيده تبارك وتعالى ، فهذا يدل على شدة افتقار العبد إلى الله وغنى الله سبحانه وتعالى عن عباده ، غني عنهم من كل وجه وهم فقراء إليه من كل وجه، لا غنى لهم عنه طرفه عين .

والجملة الثالثة قال : ((يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ)) وهذا فيه أن الأعمال تُرفع إلى الله ؛ أعمال الليل ترفع قبل أعمال النهار ، وأعمال النهار تُرفع قبل أعمال الليل ، يعني أن الأعمال تُرفع إليه أولاً بأول، اليوم بيومه والليل بليته ، تُرفع إليه أعمال الليل قبل النهار وأعمال النهار قبل الليل ، تُرفع إليه وهو سبحانه وتعالى مطلع عليها لا تخفى عليه تبارك وتعالى منها خافية ، أحصى كل شيء عددا وأحاط تبارك وتعالى بكل شيء علما ، لكن هذا الرفع للأعمال إليه لله تبارك وتعالى فيه حكمة ، فالأعمال ترفع إليه ؛ أعمال الليل التي قام بها العبد في ليله تُرفع قبل أن يأتي الصباح ، وأعمال النهار تُرفع قبل أن يأتي الليل ، فهي ترفع أولاً بأول أعمال الليل وأعمال النهار . فالجملة الثالثة : رفع أعمال الليل قبل أعمال النهار ، والجملة الرابعة: رفع أعمال النهار قبل أعمال الليل ؛ رفعها إلى الله سبحانه وتعالى .

والرفع في قوله «تُرفع إليه» فيه دليل على علوه سبحانه وتعالى وأنه جل وعلا عليّ على خلقه سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، وهو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] فهو العلي سبحانه وتعالى على خلقه . ومن ينكرون علو الله ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ((تُرفع إليه)) ؟ وماذا يفهمون من مثل هذا الحديث ونظائره؟ وكذلك قول الله عز وجل ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، ((إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الْعَبْدَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ)) ؛ هذه كلها شواهد على علو الله ، ولهذا

من ينكر علو الله أو يقول -تعالى الله عن ذلك- الله في كل مكان ما معنى ترفع إليه؟ وما معنى إليه يصعد؟ وما معنى تعرج إليه؟ كل هذه الأحاديث ما معناها؟ على حد قولهم وفهمهم ليس لها معنى .

فالشاهد أن هذا الحديث ونظائره من الدلائل الواضحات على علو الله تبارك وتعالى على خلقه ، وأنه سبحانه وتعالى مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله فوق عباده سبحانه ، وترفع إليه أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل أعمال الليل ، ويوضح هذا المعنى الحديث الآخر عندما قال عليه الصلاة والسلام : ((يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَجِئْتُمُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ يَعْزُجُ الَّذِينَ بَاثُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، فهذا فيه أيضا دلالة على كمال إحاطة علم الله عز وجل بأعمال العباد ، وأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه منها خافية ؛ الأعمال التي تكون بالليل كلها محصاة على العباد وتُرفع إليه -وهذا من كمال حكمته- تُرفع إليه في وقتها ، وأعمال النهار أيضا ترفع إليه ، فالكل محصى ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] ، والعبد إذا كان غارقاً في ذنوبه لا يزال يوماً بعد يوم يحمل وزراً وإثماً يمارسه في هذه الحياة ثم ماذا يكون؟ يلقي الله عز وجل بذلك كله محصى عليه ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ ، يأتي يوم القيامة يحمل وزراً يلقي الله تبارك وتعالى به .

فقوله ((يُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)) هذا مما ينبه العبد على المراقبة والمحاسبة ومتابعة نفسه في الأعمال ، وينتبه ألا تغرب شمس اليوم ولا يخرج الصباح إلا وله حظٌّ من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وعنده سلامة من الآثام والمعاصي والذنوب التي تُسخط الله جل وعلا ، لأن الأمر مستمر كل يوم بيومه وكل ليلة بليلتها ، فهذا يجعل العبد في دوام المحاسبة ودوام المعاتبة لنفسه ودوام المجاهدة على الأعمال الصالحة كل يوم بيومه .

هذا المعنى الذي يُلمح إليه الحديث تجد كثير منا في أمور الدنيا يلاحظ ذلك ملاحظة تامة وملاحظة دقيقة ، والشيء الذي يُرفع له وقت محدد يرفع فيه تجد الإنسان يأتي به بدقة ؛ لأنه يقول إذا رُفع لا مجال لأن أحصّله وقد فاتني، فتجده يتابع بدقة تامة حتى لا يفوته ، فهذا المعنى الذي قاله عليه الصلاة والسلام ((يُزْفَعُ إِلَيْهِ -أي إلى الله- عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)) هذا فيه دعوة للعبد لمتابعة الأمر ومجاهدة النفس ومحاسبتها والجد والاجتهاد ، لأن الوقت يمضي والأيام تمضي والليالي تمضي وكل يوم بيومه تُرفع وكل ليلة بليلتها ترفع ، وما ذهب من الليالي والأيام لا يعود ولا يرجع ؛ فهذا فيه دعوة للعبد أن يجتهد ويحفظ أيامه وحفظ ليلاليه بما يسرّه أن يلقي الله تبارك وتعالى به ، والليالي والأيام مستودع للأعمال ، وكل ما يكون من العبد في ليلاليه وأيامه سيلقى الله تبارك وتعالى به يوم القيامة .

ثم ذكر الجملة الخامسة قال : ((حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) وبصر الله تبارك وتعالى منتهٍ إلى كل المخلوقات وجميع الكائنات ، فهو سبحانه وتعالى يبصر جميع الكائنات ويرى جميع المخلوقات ، لا يفوته شيء ولا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء سبحانه وتعالى ، يرى سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى تبارك وتعالى جريان الدم في عروقها ، ويرى تبارك وتعالى سريان الماء في عروق النبات ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات لا يخفى عليه شيء لا يعزب عنه شيء لا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء ، مطلعٌ على كل شيء ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى .

يقول صلى الله عليه وسلم هنا: ((حِجَابُهُ النُّورُ)) أي حجاب الله النور .

يقول ((لَوْ كَشَفَهُ)) يعني لو كشف هذا النور الذي جعله تبارك وتعالى حجاباً له ((لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ)) ومعنى سبحات وجهه: أي بهاء وجهه ونور وجهه وجلال وجهه وجمال وجهه ((لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) وبصره منتهٍ إلى كل المخلوقات يبصر تبارك وتعالى كل شيء ؛ فهذا يدل على كمال الله سبحانه وتعالى وكمال عظمته وبهائه وجلاله وجماله وعظمته سبحانه وتعالى . «سبحات وجهه» أي: بهاء الوجه وحسنه وجلاله وكماله «ما انتهى إليه بصره من خلقه» ؛ فهذا فيه كمال عظمة الله جل وعلا ، وفيه أيضاً ضعف المخلوق ، وأن المخلوق شأنه أن سبحات وجه الله عز وجل لو كُشف عنها الحجاب لاحترق . ويوم القيامة يجعل الله عز وجل للمخلوق قدرة وقوة يتمكن بها من رؤية الله سبحانه وتعالى ، ولهذا رؤية الله لا تكون لأحد في الدنيا، ((اعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، لا تكون إلا يوم القيامة يكرم الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان بلذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى .

قال: ((حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) في الحديث إثبات الوجه صفةً لله تبارك وتعالى ، ودعواكم من أقوال العاطلين المبطلين الجاحدين المنكرين المكذبين لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذين يقولون في الله وفي كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام ما لا يعلمون ، ممن خاضوا في التأويل الباطل زعمًا منهم أنهم ينزهون الله تبارك وتعالى ؛ فالله له وجهٌ عظيم جليل يليق بجلاله وكماله ، أثبت ذلك هو سبحانه وتعالى لنفسه ، وأثبت ذلك له رسوله عليه الصلاة والسلام ، فتؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له وجه عظيم يليق بجلاله وكماله ، ووجه الله سبحانه وتعالى له بصر ، قال ((لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره)) أيضاً فيه إثبات البصر لله تبارك وتعالى ، فهو يبصر جل وعلا ويرى ، ويبصر بعينين جاء ذكرهما في القرآن وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [الفرع: ١٤] قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)) أي له عينان كاملتان منزهتان عن النقائص والعيوب ، فكل ذلك نؤمن به .

ومن لا يؤمن بذلك ومن ضيَّع هذه المعرفة بالله ترتب على ذلك من ضياع إيمانه ورُقّة دينه وضعف عبادته وضعف صلته بالله بحسب ما ضيَّع من معرفته بربه ، ولهذا قال العلماء: إن للعقائد الفاسدة شؤماً على أصحابها . من يعطّلون الصفات ويخوضون فيها تحريقاً وتعطّيلاً وجحداً ونفياً هذه لها شؤم عليهم ، ولهذا تأتي أعمالهم تبعاً لفساد العقائد أعمال ضعيفة وأعمال مضيّعة وتفريط في الواجبات وفعل للمحرمات ، وهذا كله ناشئ من فساد العقيدة فيما يتعلق بالله وصفاته وأسمائه سبحانه وتعالى .

والواجب على المسلم في هذا الباب «باب الأسماء والصفات» أن يمرّ نصوص الصفات كمات جاءت وأن يؤمن بها كما وردت ، آمناً بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمناً برسول الله وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نخوض في صفات الله بعقولنا القاصرة كما يفعله علماء الكلام أهل الضلال والباطل ؛ يأتون إلى الصفات المثبتة في القرآن والسنة ويخوضون بعقولهم ، يقول الوجه ما يليق بالله والبصر ما يليق بالله والكذا ما يليق بالله والاستواء ما يليق بالله.. ثم يخوض في تأويلات باطلة تفسد عليه دينه وعلى من يستمع إليه ؛ وهذا كله يجب الإعراض عنه وعدم السماع إليه والبعد عنه وعن أهله والإقبال على العقيدة الصحيحة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وحتى تعرفوا جيداً ما أتحدث عنه تذكروا حال الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا الحديث ويقول أمثاله من أحاديث الصفات بأي شيء تلقّوها؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة قال يوماً من الأيام لو كان لله وجهها لكان كذا وكذا ؟ لو كان الله مستوياً على عرشه للزم أن يكون كذا؟ أبلّغكم شيء عن أحد من الصحابة مثل ذلك؟ هذا كله ضلال لم يوجد إلا مع وجود البدع والضلالات والانحرافات عن دين الله ، أما قاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب تلقي أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بالقبول بدون اعتراض وبدون انتقاد وبدون تحريف وبدون تأويل ، وإنما تلقى تام لها بالقبول ، يقول الزهري رحمه الله : «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» ، أما على قاعدة المتكلمين "وعلينا الانتقاد" ، قاعدتهم في هذا الباب وعلينا الانتقاد، لأن المتكلم عندما يقف عند أحاديث الصفات لا يسلم وإنما يبدأ ينتقد "لو قلنا كذا للزم كذا" هذا انتقاد ليس تسليماً ، فقاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب التسليم والإيمان ، وعندهم أنه لا أحد أعرف بالله من الله ، ولا أحد أعرف بالله من خلق الله من رسوله عليه الصلاة والسلام . والشاهد أن الواجب على المسلم في جميع نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة أن يتلقاها بالتسليم والإيمان التام الكامل ، يثبتها لله تبارك وتعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْصُ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ)) أخرجاه .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضا في باب التعريف بالله ، تعريف عباد الله بالله سبحانه وتعالى ؛ قال : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى ، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) ؛ وصف يمين الله وهي يده تبارك وتعالى بأنها مملوءة ، وأيضا سحاء ، وانتبه للوصفين ففي العلم بهما فائدة عظيمة لك ؛ مملوء وسحاء ، قد يكون الإنسان يده فيها شيء من العطاء أو فيها شيء من الامتلاء ولكنها غير سحاء يكون بخيلا ، وقد يكون كريما عنده حب للنفقة لكن ما عنده شيء ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) يد مملوء وأيضا معطاء سحاء ينفق بالليل والنهار ؛ فهذا يدل على ماذا ؟ يدل على كمال عظمة الله عز وجل وأن الخير بيده سبحانه وأنه واسع العطاء جزيل المن ، عطاؤه كلام ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] جل وعلا .

((يمينه مملوء)) إذا عرف العبد أن الله عز وجل شأنه كذلك ؛ يمينه مملوء لا يغيضها أي لا يُنقصها نفقة ، سحاء الليل والنهار ما الذي تولّد هذه المعرفة في قلبه ؟ هذا يولد فيه صدق الإقبال عليه ، يولد فيه المعنى الذي جاء في قوله تعالى ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] ، ابتغ الرزق عند من يمينه مملوء سحاء الليل والنهار ، فهذه المعرفة تجعل العبد يُقبل على الله ولا يُقبل على أحد سواه تبارك وتعالى ، لأن الرزق بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، الأمور بيده ، هو الرزاق ، قال عز وجل : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] .

من القصص اللطيف في هذا الباب : قصة أوردها ابن قدامي رحمه الله عن الأصمعي ؛ الأصمعي كان رجل رحالة يرحل للبلدان وللمناطق فيقول : لقيت أعرابي وصفه الأصمعي بأنه جلف يعني في تعامله ، فيقول كان على ناقته وكنت أمشي على قدمي فلقيني وهو على الناقة فقال لي ممن أنت؟ قلت له من بني الأصمعي ، قال لعلك الأصمعي؟ - كان مشهور في زمانه في الناس - قال أنا هو ، قال من أين جئت؟ قال له الأصمعي جئت من بلد يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال الأعرابي: أو للرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ - أول مرة يسمع - قال نعم ، قال اسمعني شيئا منه ، قال انزل من ناقتك فنزل ، يقول فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلت إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] ، قال أو هذا كلام الرحمن؟ قلت إي والله هذا كلام الرحمن ، قال امسك ناقتي فمسكها فنحر الناقة وقطعها قطعاً وقال ساعدني على تفريقها بين الناس ، ضامن الرزق ، ناقته

التي هي معه نحرها وقسمها ضمن الرزق، امتلأ قلبه بالإيمان بمدلول قوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، يقول ففرقنا اللحم ومضى وهو يقول ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، ثم لقينته بعد سنوات في مكة في المطاف فعرفني وعرفته فقال لي اقرأ علي من كلام الرحمن، فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلنا قول الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، قال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، قال: بعده شيء؟ قلت نعم ، قال اقرأ ، قال ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] قال الأعرابي كلاما عجيبا ، قال: سبحان الله ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ يعني نصدقه بدون أن يحلف ، انظر هذا الفقه قال "ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟" ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يحلف سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ .

على كل حال ؛ إيمان العبد بأن الله عز وجل يمينه ملأى يورث العبد افتقارا ، ذلا ، سؤالا ، طلبا ، طمعا ، والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يذل له وأن يسأله وأن يلح عليه وأن يطلب منه ، وفي الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((من لم يسأل الله يغضب عليه)) ، يمينه ملأى ، خزائنه ملأى ، ما عنده تبارك وتعالى لا ينفد ثم لا يتجه إليه العبد بالسؤال!! من لا يسأل الله يغضب عليه . يقول الناظم :

والله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

تجدد من الناس من يسأل من يغضبون منه إذا سألهم ويتبرمون ويترك سؤال من يحب منه كل وقت وحين أن يسأله ومن هو خزائنه تبارك وتعالى ملأى سبحانه .

قال: ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً)) وأيضا تُضبط «لا تغيضها نفقة» أي لا يُنقصها .

قال: ((أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ)) لأن ما عنده لا ينفد سبحانه وتعالى ، عطاءه سبحانه وتعالى كلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، ﴿يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبا: ٣٦] .

((وَالْقَسَطُ بِيَدِهِ الْآخَرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ)) ؛ والحديث واضح الدلالة بل صريح الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى له يدان تليقان بجلاله وكماله، قال ((يمين الله ملأى.. ويده الأخرى)) وهذا جاء أيضا التصريح به في القرآن: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ، فهذا جاء صريحا في كتاب الله عز وجل ، وهو صريح في ثبوت يدين لله سبحانه وتعالى ؛ وهما يدان حقيقتان تليقان بالله.

ولو قرأت هذا الحديث لوجدت فيه من وصف اليدين ما يقطع دابر المعطلين المؤولين الذين يؤولون اليد إما بالقدرة أو القوة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات ، فوصف اليد هنا بعدة صفات تأملها ؛ وصفها بأنها يمين ، وصف الثانية بأنها أخرى ، ووصفها أيضا بأنها سحاء يعني يعطي ، ووصفها أيضا قال: ((بيده الأخرى الرفع والخفض)) ، وفي الحديث الآخر قال: ((يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار)) ، يقول ابن القيم في كتابه الصواعق : وُصفت يد الله في الكتاب والسنة بما يقارب المئة صفة كلها تدل على أنها يد حقيقية ، مئة صفة مثل: البسط، العطاء، القبض، الأصابع إلى غير ذلك ، قرابة المئة صفة جاءت في الكتاب والسنة ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] القبض والطي ، والأخذ ((إلا تلقاها الله بيمينه)) أحاديث كثيرة جدا وآيات كثيرة فيها وصف اليد الله تبارك وتعالى بأنها يد حقيقية ؛ ومع هذا الوضوح ومع كثرة هذه الدلائل تجد أهل التأويل الباطل يقفون عند النصوص التي فيها اليد ويصرفونها عن مدلولها ويقولون المراد باليد القدرة .

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قاطع لدابرهم قاصم لهم ، اقرأه عليهم ويكفي في إبطال ما يقولون ، من يقول لك اليد القدرة اقرأ عليه الحديث ، قل له أنت تقول اليد القدرة !ماذا تصنع بهذا الحديث ((يعين الله ملأى)) ماذا تقول؟ قدرته ملأى؟ ((لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وبيده الأخرى)) وبقدرته الأخرى؟ هذا كلام يستقيم ؟ قراءة الحديث هذا وحده كافي في إبطال تأويل المتأولين ، وهذه قاعدة نبه عليها أهل العلم في رد التأويل ؛ إذا تأول متأول شيئا من صفات الله فكيفك أن تذكر له موارد هذه الصفة في القرآن والسنة موضعاً موضعاً ، يكفي إيراد هذا في رد باطله .

الشاهد أن هذا الحديث فيه إثبات عظمة الله وجلاله وكماله ، وأيضا سعة عطائه ومَنِّه ، وأن الأمور بيده عز وجل العطاء والمنع والخفض والرفع والقبض والبسط كل ذلك بيده ، وإثبات اليمين له ، وإثبات اليد الأخرى له سبحانه وتعالى ، وهذا أيضا ثابت في القرآن ، في سورة الزمر قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧) .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ : ((أَتَدْرِي فِيْمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟)) قُلْتُ : لَا ، قَالَ : ((لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا)) رواه أحمد .

ثم أورد هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وفيه بيان كمال علمه سبحانه وتعالى . قال: ((رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ أَتَدْرِي فِيْمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ لَكِنَّ اللَّهَ

يَذَرِي)) ؛ فهذا فيه إثبات علم الله المحيط بالعباد والمحيط بالبهايم والدواب وبكل المخلوقات ، أحاط سبحانه وتعالى بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، فكل شيء أحصاه الله سبحانه وتعالى ؛ فهذا فيه إثبات العلم

وفيه إثبات كمال العدل ولهذا قال : ((وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا)) أي يحكم بينهما يوم القيامة ، وهذا المعنى جاء أيضا في الأحاديث الأخرى ما يشهد له ؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: ((لَتَوُودَنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) يعني من ضيَع الحقوق وأدائها إلى أهلها في الدنيا سيؤديها لزما إلى أهلها يوم القيامة ، قال: ((لَتَوُودَنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ)) التي نطحتها ، الجلحاء: التي ليس لها قرون. والقرناء: التي لها قرون ، والشاة القرناء إذا نطحت الشاة الجلحاء بقرنها يقتص لها منها يوم القيامة ، فما بالكم بمظالم العباد!! ولهذا جاء في حديث عبدالله بن أنيس وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاءَ غُرْلًا بَيْنَهُمَا)) قالوا : وَمَا بَيْنُهُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ يعني عرفنا حفاة وعرفنا عراة ؛ حفاة: لا نعال عليهم ، عراة: ليس عليهم ثياب بهما ما معناها ؟ قالوا : وَمَا بَيْنُهُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ((لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ)) ؛ من كان عنده أموال قصور تجارات ممتلكات كل هذه بموته انتهت بالنسبة له ، ليس معهم من الدنيا شيء ، قد ينتهب الإنسان نهبه كبيرة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم ثم يموت بعد انتهائها بساعة فلا يستفيد منها شيئا وتكون يحملها يوم القيامة وزرا ، ويأتي بها يوم القيامة مظلمة . قال ((بَيْنَهُمَا أَي : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ - سبحانه وتعالى وقد حشر العباد- بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدَّيَّانُ ، ثم يقول سبحانه وتعالى : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْمَةُ)) قَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاءَ غُرْلًا بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) ، وقوله ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) يوضحه الحديث الآخر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابه : ((أَتَذَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ ؟)) قَالُوا : «الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ» ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((الْمُفْلِسُ مَنْ أُمِّي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ هذا معنى قوله في الحديث الأول ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) .

إذاً هذا الحديث فيه من التعريف بالله؛ بيان إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بالمخلوقات ، أحاط بها علما وأحصى كل الأعمال وكل ما يقع أحاط بذلك علما سبحانه وتعالى ، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وأيضا فيه إثبات عدل الله سبحانه وتعالى ، وأن المظالم لا تضيع حتى قال عليه الصلاة والسلام: ((ولو

كان عودا من أراك)) ما يضيع شيء المظالم لا تضيع حتى لو كان شيئا قليلا لا يضيع ، ((مَنْ أَقْطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ)) ليس هناك شيء يضيع ، فهذا فيه كمال عدل الله سبحانه وتعالى .

وهذه المعرفة بأمثال هذه الأحاديث يورث العبد تقوى الله عز وجل وبُعْدًا عن الظلم وبُعْدًا عن التعدي ، فالمظالم لا تضيع ، والظالم سيلقى الله سبحانه وتعالى بمظالمه وسيجازى ويحاسب بميزان بمثاقيل الذر ، وهذا كله من كمال عدل الله ؛ فهذه معرفة عظيمة يترتب عليها من صلاح العبد وصلاح أعماله وزكاء نفسه وحسن معاملته ومراقبته وبُعْده عن المظالم يترتب عليها خير عظيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ، ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليها على عينيه . رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ؛ وهذا الحديث يبين لنا أيضا بابًا من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى ، ويبين لنا أيضًا في الوقت نفسه أثر المعرفة في صلاح العبد ، وأن الأمرين مرتبطان ؛ معرفة العبد بربه يرتبط به صلاح العبد ، ولهذا ربط بين الأمرين عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فأصلحوا أنفسكم بأداء الأمانات وجاهدوا أنفسكم على أدائها ، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عليكم ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ، ثم ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ؛ انتبهوا ، هذا الذي أُمِرتم به وانتبهوا ، الله سميع بصير ، بمعنى أن علم العبد بسمع الله لكلامه ورؤيته لأفعاله وحركاته وسكناته يجعله يحافظ على الأمانة وإذا حكم لا يحكم إلا بالعدل ؛ مراقبة لله وخشية له وطاعةً وعلمًا بأن ربه تبارك وتعالى يسمعه ويراه .

وإيمان العبد الصحيح بأن الله عز وجل يسمعه ويراه يترتب عليه صلاح العبد ، وكم في هذه المعرفة من النفع للعبد لو استحضرها وتذكرها . أحد السلف رأى رجلاً وامرأة في ريبة فقال لهما «إن الله يراكما» سترنا الله وإياكما . ويقول ابن رجب في أحد كتبه : راود أعرابي أعرابية في الصحراء وقال لها نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ،

يعني من ماذا تخافين ما أحد يرانا من أي شيء تخافين؟ قال نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ، قالت له وأين مكوكبها؟ مكوكب الكواكب أين هو ألا يرانا ؟ فاستحضر العبد لرؤية الله له وسماعه لكلامه من الأسس العظيمة لصلاح العبد في أقواله وأعماله . ولو استحضر العبد رؤية الله له وسماعه لكلامه لاستحيا من الله حق الحياء أن يتكلم بكلام يسخطه أو أن يفعل فعلا يسخطه ، لكن ضعف معرفة العبد بأسماء الله وبأن ربه تبارك وتعالى سميع بصير ضعف المعرفة ، توجد عند الناس المعرفة المجملة لكنها متفاوتة فيهم ، فضعف هذه المعرفة في القلوب تجعل العبد ينخرط فيما ينخرط فيه من معاصي ويقع فيما يقع فيه من آثام .

وهنا يقول عليه الصلاة والسلام لما قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ويضع -أي النبي عليه الصلاة والسلام- إبهاميه على أذنيه والتي تليها السبابة على عينيه؛ قال العلماء رحمهم الله : أراد بذلك تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمعٌ حقيقي وبصر حقيقي ، أراد أن يثبت هذا الأمر ويحقق هذا الوصف ويؤكد ثبوته عليه الصلاة والسلام بوضع الإبهام على أذنيه والسبابة على عينيه، تحقيقاً للوصف وتثبيته له . ولهذا نظائر في سنته ؛ مثل لما كان على المنبر وقال عليه الصلاة والسلام ((إن الله يطوي السماوات يمينه ويهزهن)) وهو على المنبر أخذ يهز النبي عليه الصلاة والسلام يمينه حتى قال الصحابة «أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم!!» أي المنبر .

فهذا كله المراد به تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمع حقيقي وله بصر حقيقي يليق بجلاله ، وليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ، وقرأ هذا المعنى واضحاً في قول الله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ؛ أثبت لنفسه تبارك وتعالى السمع والبصر بعد نفي المثلية ، فماذا أفاد ؟ قال العلماء : في إثبات السمع والبصر بعد نفي المثلية دليلٌ على أن إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله لا يستلزم التشبيه ، فالصفات لله ثابتة على الوجه اللائق بجلال الله تبارك وتعالى وكماله ، وهو سبحانه منزّه عن النقائص والعيوب . وليحذر المسلم في هذا الباب من أن يبالغ في الإثبات إلى حد التشبيه ، أو يبالغ في التنزيه إلى حد التعطيل ؛ فكل منهما ضلال ، والحق قوام بين ذلك ، الحق حسنة بين سيئتين وهدى بين باطلين ؛ باطل المشبهة وباطل المعطلة ، الحق هو إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، هذا هو الحق .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ؛ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَعْبِضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا

اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ تبارك وتعالى)) رواه البخاري ومسلم.

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) ؛ وهذا الحديث فيه التعريف بالله ببيان كمال علمه وإحاطة علمه وأنه سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علما واختص تبارك وتعالى بعلم الغيب، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] اختص بذلك ، ولم يُطلع أحداً على ذلك إلا في أشياء معينة لحكمة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] فالله عز وجل اختص بعلم الغيب ، لا يعلم الغيب إلا الله كما يدل على هذا هذا الحديث ، وأيضاً كما يدل عليه الآية التي أشرت إليها ؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله : من ادَّعى علم الغيب فهو كافر؛ لماذا ؟ لأنه مكذب بالقرآن ومكذب بسنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولأنه أيضاً ينازع الله في خصائصه وصفات كماله ، يدَّعي لنفسه منازعة الله في خصائصه وصفات كماله . نبينا عليه الصلاة والسلام سمع امرأة تمدحه تقول: «وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ» فغضب صلى الله عليه وسلم وقال : ((لا يعلم ما في غدٍ إلا الله)) ، فعلم الغيب من خصائص الرب العظيم سبحانه وتعالى ، لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا . النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، والمخلوقات لا تعلم الغيب ، وإنما الذي يعلم الغيب والشهادة هو رب العالمين .

وعندما نقول «عالم الغيب» فالمراد بالغيب أي بالنسبة لنا نحن ، أما في حقه سبحانه وتعالى فالكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية ، فهو غيبٌ بالنسبة لنا لأنه غائب عنا ، أما الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء وهو مطلع تبارك وتعالى على كل شيء ، فهو غيب بالنسبة لنا ، عالمٌ بالغيب أي ما غاب عنا نحن المخلوقات ، أما في حقه سبحانه وتعالى فليس هناك غيب الكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم ما في بطون الأرض ويعلم ما في السماوات ، أحاط بكل شيء علما وأحصى تبارك وتعالى كل شيء عددا .

قال عليه الصلاة والسلام: ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) وهذا فيه التنبيه على اختصاص الله تبارك وتعالى بعلم هذه المغيبات ، قال: ((مفاتيح الغيب)) الغيب: هو ما غاب عنا ولا سبيل للعبد إلى النفوذ إليه أو إلى معرفته فهو غائب عن الإنسان ، ورب العالمين تبارك وتعالى مختصٌ بالعلم بالمغيبات . ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) ثم ذكرها .

قال: ((لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ)) كل الحوادث التي تكون في مستقبل الإنسان في أيامه القريبة أو في أيامه البعيدة، غد القريب أو غد البعيد الله سبحانه وتعالى هو المختص بعلم ذلك .

((وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ))؛ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] يعني ما يحصل في الرحم من نقص أو ما يحصل في الرحم من ازدياد من ضمور في الجنين وضعف أو مثلاً اكتمال له ونماء هذا من علمه تبارك وتعالى .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ)) يعني لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

((وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ)) لا يدري الإنسان متى يموت ، وإذا كانت منيته في بلد وهو في بلد آخر ساقه الله تبارك وتعالى إلى البلد الذي فيه منيته ، وكم من إنسان سافر ليذهب إلى مكان منيته ، كم من إنسان سافر خرج من بيته وركب مطيته ليذهب إلى مكان منيته ، منيته المحددة في مكان معين فيذهب إليها ، تجده يخرج من بيته ويودع أهله ويسافر وقد كُتب له في منتصف الطريق بين مكة والمدينة أن تنتهي حياته فذهب إلى منيته ، كم من إنسان كثير تكون منيته في بلد فيتحرك عندما تدنو منيته يتحرك ليذهب إلى منيته .

وعندما يتفكر الإنسان في القصص التي تحصل في هذا الباب يرى عجباً ويرى كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ، يمر على الناس في واقعهم قصص عجيبة ، من القصص العجيبة في هذا الباب: أن أهل بيت كان والدهم ووالدتهم الكبار الجد والجدة كانوا في سفر وكانوا قادمين فكانوا أبناء الأبناء وهم عدد ينتظرونهم عند الباب لأنه قرب مجيئهم، فدخل والد أحدهم إلى البيت بعد صلاة المغرب وإذا بابنه نائم عمره ست أو سبع سنوات ، فقال لوالدته أيقظيه قالت هو تعشى ونام ، قال: لا أنا أريد أن يكون مع الأولاد يستقبلون والدنا ، فأيقظته أمه وألبسته وخرج ما أمضى ربع ساعة وصدمته سيارة ومات عند الباب ، أيقظته أمه لماذا ؟ نائم! أيقظته أمه لأن منيته جاءت ، أمه توقظه ووالده يطلب إيقاظه ولو يعلم والده أنه يطالب بإيقاظه ليموت وأمّه توقظه وتلبسه ثيابه ليموت ما يدري ، ربع ساعة توقظ ولدها ليذهب ليموت ؛ هذا أمر علمه عند الله ، انظروا للقصة هذه ونظائرها كثير ، إذا جاءت المنية ولا يدري أحد متى تأتي؟ قد تكون بعد ربع ساعة قد تكون بعد دقائق فهذا علمه مختص بالله تبارك وتعالى ، لا يعلم ولا تدري نفس بأي أرض تموت .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) ومن ادّعى علم شيء من ذلك فهو مكذب بالقرآن ومكذب بأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وإذا عرف العبد هذا العلم ، عرف علم الله عز وجل ؛ أن الله عز وجل عليم وعلمه محيط بكل شيء ، وأنه اختص بعلم المغيبات وعلم السرائر وما تخفي الصدور أحاط بكل شيء علنا ؛ فهذا يورث العبد مراقبة لله سبحانه وتعالى خشية وإقبالاً على الله وقيامًا بعبادته إصلاحاً لحاله بينه وبين الله عز وجل .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .